## الفصل الخامس

# الخلافة وسلطة المفسِّر

(1)

# الخلافة في لغة العرب

تعـود الدراسة بكلمـة الخلافة إلى جذورهـا اللغويـة الأولى، بعيدا عن الاستعـمالات المعـاصرة الشائعـة للخلافـة الإسلاميـة، فكثيرا مـا يذهب الدارسـون إلى النص القرآني بمفهـوم استقر في أذهانهـم، ويريدون له سندا مـن القرآن الكريم، فيستدل باللفظة في الآية القرآنية على معنى لم تُوضع له في أصـل الاستعمال العربي الذي نزل به القرآن بل على دلالة حديثة اكتسبها اللفـظ في لغـة المتأخرين مما يُحـدث خلطا في الدلالـة، وارتباكًا في المفهوم، ينبني عليه فهْما ضبابيا للآية القرآنية.

والخلافـة في لغـة العرب من الجذر اللغوي خَلَف، ومنه اشـتقت الأفعال استخلف، وأخلـف، وكلمة خليفة، وجمعها خلفـاء وخلائف، وقد تعددت دلالات الكلمـة، وتفاوتـت في الاستعـمال بـين الشهرة والنـدرة،[1] وهذا ما نجمله فيما يلي:

(1) ينظر: -محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب ج9. ص132:138، ط. دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط. ج1. ص250،251، ط. المكتبة الإسلامية، تركيا، د.ت.

- إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ج4. ص1356،1357، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، 1407هـ- 1987م.

**أ- خَلَف الشيء خُلُوفا:** تغير وفسد، يقال: خلف الطعام، وخلف فم الصائم، وفي الحديث: «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»، ويقال خلف فلان أي تغير خلقه وساء، وخلف عن الشيء أي أعرض عنه.»

**ب- خَلَف بمعنى تناول سيفه،** يقال: «أخلف الرجل أي ضرب الرجل يده إلى قراب سيفه؛ ليأخذ سيفه إذا رأى عدوا، فيقال: أخلف الرجل إذا أهوى بيده إلى سيفه ليسله، وفي حديث عبد الرحمن بن عوف: «أن رجلا أخلف السيف يوم بدر، يقال: أخلف يده إذا أراد سيفه، وأخلف يده إلى الكنانة، ويقال: خلف له بالسيف إذا جاء من ورائه فضربه. وفي الحديث: «فأخلف بيده وأخذ يدفع الفضل.»

**ج- خَلِف خَلَفًا مَالَ على أحد شِقيّه،** ويقال لأحول العينين أخلف.

**د- خلف فلانا أي صار خلفه،** وفلان خَلَفًا لفلان أي جاء بعده فصار مكانه، وكان خليفته، واستخلفه جعله خليفته، والخِلافُ: شجر الصّفصاف، ويقال جاء خلافه أي بعده، وفي التنزيل العزيز: «إذًا لا يلبثون خلافك إلا قليلا»، والخَلْف بإسكان اللام القَرْن يأتي بعد القرن.»، يقال: «استخلف فلان من فلان جعله مكانه، وخلف فلان فلانا إذا كان خليفته. يقال: خلفه في قومه خلافة، وفي التنزيل العزيز «وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي»، وفي الحديث «أخلفت غازيا في سبيل الله في أهله؟» فأخلفت الرجل في أهله إذا أقمت بعده فيهم، وقمت عنه بما كان يفعله، وأخلف فلان خلفا صدق في قومه أي ترك فيهم عقبا. وأعطه هذا خلفا من هذا أي بدلا. والخالفة: الأمة الباقية بعد الأمة السالفة؛ لأنها بدل ممن قبلها وأنشد: كذلك تلقاه القرون الخوالف.

وخلفته أيضا إذا جئت بعده، ويقال: خلفت فلانا أخلفه تخليفا، واستخلفته أنا جعلته خليفتي. واستخلفه: جعله خليفة، والخليفة: الذي يستخلف ممن قبله.»

**هـ- الخليفة بمعنى زعيم وشيخ القبيلة**، والأمير ومنه قول الشاعر الجاهلي أوس بن حجر:

**إن من الحي موجودا خليفته وما خليف أبي وهب بموجود**

وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء فيكثرون قالوا فما تأمرنا قال فُوا ببيعة الأول فالأول»[1] ومنه دلالة لفظ الخليفي في حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لولا الخليفي لأذَّنت، وفي رواية: لو أطقت الآذان مع الخليفى، بالكسر والتشديد والقصر، بمعنى الخلافة.»

**و- الخليفة بمعنى السلطان الأعظم**، يخلف من قبله ويسدُّ مسدَّهُ.[2]

**ونخلص مما سبق إلى أمور نجملها فيما يلي:**

1- اشتراك جميع دلالات اللفظ في معنى التغير والتحول من حال إلى حال.

2- انتقال المعنى من الدلالة الحسية الظاهرة لتغير وتحول الأشياء الجامدة إلى دلالة معنوية لتغير وغياب الأشخاص.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (3455)، ومسلم في صحيحه (1842).

(2) ينظر: محب الدين محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج6. ص99، ط. دار الفكر، بيروت.

3- إطلاق لفظ الخليفة على القائد وزعيم القبيلة، عرفها العرب قبل الإسلام كما جاء في بيت أوس بن حجر في دلالة (هـ)، فدلالة كلمة خليفة على الأمير دلالة عربية تطوّر إليها الاستعمال العربي للفظ قبل الإسلام، لا تحمل قدسية ولا اصطلاحية شرعية استحدثت مع الإسلام.

4- أن القرآن الكريم - كما ستبين الدراسة- اختار الدلالة (د) دون غيرها من الدلالات اللغوية؛ لاستخدام اللفظ ومشتقاته.

5- أن الدلالة (د) اكتسبت شهرةً وانتشارًا عن غيرها من الدلالات، وساعد في ذلك الاستعمال القرآني لها.

6- أن الحديث النبوي لم يتقيد بدلالة لغوية واحدة لمادة خلف كما جاء في القرآن الكريم، بل استعملها بمختلف الدلالات.

7- إطلاق الخليفة على السلطان الأعظم -الدلالة (و)- متأخرة زمنا في الاستعمال اللغوي مقارنة بغيرها من الدلالات، فهي تعبير عمّا صارت إليه الدلالة في استخدام المتأخرين في القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي والتي باتت الدلالة الأكثر استدعاءً في الواقع المعاصر، واستعمالا في الخطاب الفكري الحديث.